فلسفة التاريخ عند أوزوالد شبنجلر

الدكتور قيس هادي أحمد/ فلسفة
جامعة بغداد – كلية الآداب

مقدمة :-

أراد شبنجلر أن يحدث في فلسفة التاريخ ما أحدثه كوبرنيكوس في فلسفة الطبيعة ، فقد وجد أن الحضارة الغربية قد تحررت منذ زمن طويل من النظرة التقليدية الى الطبيعة ، حين تركت نظام الكون ، كما تصوره بطليموس ، الى نظام الكون كما نتصوره اليوم ، فلم نعد نرى في الوضع الذي يتصادف ويوجد فيه الفلكي على كوكب من الكواكب الأساس للصورة التي يتعين علينا ان نتصورها للكون ، كذلك ينبغي علينا ان نتحرر من النظرة التقليدية الى التاريخ ، فلا نقسمه الى قديم ووسيط وحديث ، فأننا نكون عندئذ واقعين تحت وهم النظر الى التاريخ من خلال العصر الذي تصادف ووجدنا فيه ، فإذا بدا لنا ان القرن التاسع عشر أغنى واهم بكثير جداً من القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، فان هذا ليس صحيحاً ، تماما مثلما ليس من الصحيح ان يكون القمر أكبر من المشتري وزحل ، رغم ما يبدو لنا . إذن فليتحرر المؤرخ من هذا الوهم ، بان يجعل بينه وبين تاريخ وجوده مسافة كافية تسمح له بان ينظر اليه باعتباره شيئاً بعيدا عنه كل البعد غريبا كل الغرابة ، وباعتباره مدة من الزمان ليس لها من وزن اكبر مما لغيرها من مدد الزمان ، دون ان يخضعه لقاعدة من قواعده ، فهذا يشوهه ويزور في طبيعته ، ودون ان يرجعه الى نفسه ويدخل فيه رغباته وهمومه وعواطفه الشخصية التي تمليها عليه حياته العملية ، مسافة – اذن – تسمح بادراك الواقع الإنساني ، من بعد شاسع جداً ، بإلقاء نظرة عبر الحضارات كلها ، بما فيها الحضارة التي ينتسب اليها ، وكأنه ينظر فيما وراء سلسلة من الجبال التي تمتد في الأفق البعيد . ان

التاريخ عند شبنجلر – يتكون من كائنات عضوية حية هي الحضـــارات ، وكـل حضارة منها تشبه الكائن العضوي تمام الشبه ، فتاريخ كل حضارة هو كتـــاريخ الانسان والحيوان والنبات ، سواء بسواء ، وتبعا لذلك فأنها تمتاز بتلـك الصفـات التي يمتاز بها كل كائن عضوي حي . فلكل حضارة كيانها المستقل المنعزل تمـام العزلة عن كيان غيرها من الحضارات ، ولا سبيل الى ان ترث حضارة أخـرى ، ما دامت كل حضارة تشكل وحدة مقفلة على نفسها . وما يشاهد من تشـــابه فـي الظاهر ، إنما هو وهم فحسب . لأن لكل حضارة روح خاصة بـها تختلـف فـي جوهرها وأسلوبها وممكنات وجودها .[1] لقد قدم شبنجلر صورة قاتمة للتـاريخ ، حين أكد بشكل قاطع أن لا إنسانية ، بل مجموعة حيوانات مفترسة ، لا عـرف ولا تقاليد ، بل طرافة وخلقا وبداء ، لا استمرار ، بل انقطاع وعزلة ، لا تقدم ، بـــل دورات مقفلة ، لا غاية إنسانية ، بل مصير يتحكم . فان كنت تريد ان تكون خالقـا للتاريخ لا موضوعا له ، وان كنت ترمي الى الحياة حقا في هذا الوجود الحي ، لا ان تفر منه الى كهوف الأوهام الرطبة المعتمة ، فضع هذه الحقائق نصب عينيك ، واكشف عنها في فعلك . ولا تنخدع بهذه الآمال المعسولة ، آمال الســـلام الدائـم والطمأنينة الهادئة ، فان الحياة صراع وكفاح ولا تعرف غير ذلـــك ، والإنســان حيوان مفترس ، ولا يمكن ان يكون غير ذلك ، وما هؤلاء الدعاة الى الســـلام الا منافقون خبيثون فقدوا أنيابهم ونزعت منهم مخالبهم ، فحقدوا على من لها مالكون . ولا تعش في عالم الحقائق أو المخترعات ، بل عش في عـــالم الواقـــع وأســـاليب البطولة والخلق ، والقي بالماضي من وراء ظهرك ، فلا تستمد الحياة الا من ينبوع الحاضر ، وارفض التقاليد القديمة أشد الرفض ، فالزمان لا يقبل الإعادة والحيـــاة في تجدد مستمر ، فكن مثلها خالقا ومجدا دائبا باستمرار . وإذا أخذت شـــيئا مـــن غيرك فأحله الى طبيعة نفسك بكل قوة وبلا مهادنة أو مساومة . وإذا كان المصـير قد قدر لك أن تكون خالقا لحضارة جديدة ، فأبدأ من جديد دائما وأكد ذاتك بكل قوة

---

(1) Colling Wood (R.G .) : Oswald Spengler And The Theory of Theory of Historical Cycles : P. 7 . 18

ضد روح الحضارة المحتضرة ، ولتصارع القوى الكونية بلا هوادة ولا تسليم ، حتى تسيطر عليها أو تموت ، ولا تعرف غير الانتصار غاية والقوة وسيلة ، ولتعانق المصير بكل قوة وحرارة ، فافعل ما يقتضيه أو لا تفعل شيئاً ، وأتصل بينبوع الوجود الحي ومركز الإشعاع في الكون ، كي تستمد منه في الحياة قوى الخلق والإبداع ، ثم لتفنى في النهاية حصنه الأبدي المنيع .

حياة شبنجلر وطريقة تفكيره :-

ولد أوزوالد شبنجلر في ألمانيا عام ١٨٨٠ م من أبوين مسيحيين ، وكان الأساتذة الذين حضر دروسهم أساتذة أكفاء ، حيث حصل على خبرة علمية جيدة أثناء دراسته ، خاصة عندما دخل جامعة برلين ليتخصص في العلوم الطبيعية . وقد مارس مهنة التدريس في المرحلة الثانوية ، حيث قام بتدريس الرياضيات من عام ١٩٠٨ م الى عام ١٩١١ م ، ثم استقال من وظيفته ، وذهب للإقامة في مدينة ميونيخ ، حيث قضى ما تبقى من حياته منقطعا الى التأمل والدرس وحيداً يعيش في عزلة تامة ، ولم يتزوج على الإطلاق ، حيث وافته المنية عام ١٩٣٦ م .

أما أشهر مؤلفاته ، بل أهمها ، على الاطلاق ، فهو كتاب (تدهور الغرب) ، الذي صدر الجزء الأول منه عام ١٩٢٠ م في ٦١٥ صفحة ، وصدر الجزء الثاني عام ١٩٢٢ م في ٦٣٥ صفحة . هذا الكتاب الرئيسي الضخم أودع شبنجلر فيه كل فلسفته ، كما قدم فيه الصورة الإجمالية الشاملة لهيئة تاريخ العالم .

بلغ التقدير لهذا الكتاب في الغرب حداً ، صنف معه كأعظم مؤلف صدر في النصف الاول من القرن العشرين ، فهو كتاب يعالج جميع الحضارات الإنسانية وإنجازاتها من فن وعلم وفلسفة ومذاهب وأديان ، لهذا فأن القاريء سيذهل من وفرة معلومات شبنجلر الموسوعية ، وسيعجب بمنطقه المنسق والدقيق في ملاحظاته .

أما بقية مؤلفاته ، فهي مجموعة من مقالات ومحاضرات وكراريس ، لا يتجاوز أضخمها المئتين من الصفحات ، واشهر هذه الكراريس هي

(هرقليطس : دراسة في الأفكار الرئيسية الديناميكية في فلسفته) . وعندما انقاد شبنجلر بحكم التطور الطبيعي لفكره الى ورود النشاط السياسي ، ألف في هذا المجال مقالات مثل (البروسية والاشتراكية) و (إعادة بناء ألمانيا) .... الخ ، حيث قام بحملة في سبيل شكل جديد من الاشتراكية ، نابع من التقاليد الألمانية . وقد كان لهذه المؤلفات أثر بعيد المدى في الجيل الألماني الناشيء ، تزامن مع صعود الحركة الوطنية الاشتراكية الى سدة السلطة .[١]

لكن الهتلريين عملوا على استبعاد شبنجلر ، لأن فلسفته لم تكن عنصرية بالقدر الذي يرغبون . اما تأثير شبنجلر خارج نطاق ألمانيا فقد كان واسعا جدا ، حيث ترددت أصداء فكره عند معظم الفلاسفة الذين كتبوا في فلسفة التأريخ .

تأثر شبنجلر في طريقة تفكيره بالتراث الفلسفي الألماني الذي وصل أوجه في القرن التاسع عشر ، بحيث يستطيع الدارس ان يعتبر شبنجلر ، مجرد امتداد طبيعي لهذا الفكرة في القرن العشرين . غير ان الشخصية الفلسفية الرئيسية التي سيطرت على فكره ، كانت شخصية (فردريك نيتشه ١٨٤٤ – ١٩٠٠ م) والحق ان شبنجلر كان من اشد المعجبين بنيتشه ، وان لم يبد إعجابه به بصورة علنية واضحة ، لكنه يلتقي معه في عدة نقاط أساسية ، منها ان الحياة كانت عنده ، كما كانت عند نيتشه ، صراع من اجل السيادة والسيطرة ، والقوة الوحيدة التي تسودها هي قوة المصير ، المصير القاسي الذي لا يرحم ، ولا يكترث بصيحات الشاكين وأحكامهم الأخلاقية ، ولا يعرف غاية من تلك الغايات الإنسانية ، التي يحلم بها الحالمون ، ومنهم الحالمون بالسلام الدائم ، حيث ان هؤلاء بدورهم مناضلون من نوع خاص ، هم ايضا حيوانات من نوع خاص ، هم ايضا حيوانات مفترسة ، كالأبطال الحربيين ، سواء بسواء ، كما انهم حيوانات مفترسة لا أنياب لها ولا مخالب ، قد عجزوا عن الافتراس فراحوا ينافقون ويعملون على الافتراس ، ولكن بطريقة مختلفة ، مدفوعين بالحقد العنيف الدفين على هؤلاء الذين أوتوا القدرة على

---

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، جـ ٢ .

الافتراس . انظر اليهم جيدا : وهم ينادون بالسلام الدائم وإلغاء الحروب ، ويدعون انهم يمقتون القتل وسفك الدماء ، اولا يشعرون بأشد أنواع الغبطة والارتياح حين يرون أعدائهم يقتلون ، او لا ينادون ايضا بالقضاء على خصوم السلام ؟ (الانسان حيوان مفترس) ، هذا قول سأردده دائما ... ولست ادري من ذا الذي اهنئه بهذا التعريف ! أهو الانسان ام الحيوان ؟

ان الحيوانات المفترسة العليا الكاملة النوع مخلوقات نبيلة ، لا يدفعها الضعف والنفاق الى ادعاء أخلاق كهذه الاخلاق الانسانية هذه الاخلاق الوضيعة التي تفر من الحياة الى كهف من الأكاذيب والأحلام الشاحبة .

ان الأخلاق كانت عند شبنجلر تماما كما كانت عند نيتشه ، نوعان : أخلاق عالية وأخلاق وضيعة : الاولى تدعو الى النضال المستمر ، والكفاح مع الوقائع ، والانغمار في تيار التاريخ الحي الذي لا يعرف غاية أخلاقية ولا معنى إنساني ولا يسير على هذا المنطق الذي وضعه الانسان . انها أخلاق قاسية تهيب بالإنسان ان يضحي بنفسه على مذبح التاريخ من اجل التاريخ ، بينما الأخلاق الثانية أخلاق لا صلة لها بالحياة ، وليس من شأنها ان تدفع الى خلق التاريخ ، لأنها تنادي بالفرار من الاثنين عن طريق عالم من الحقائق او الأكاذيب ، والمعنى هنا واحد.

وليس هذا تشاؤما – في رأي شبنجلر – بل هي نظرة واقعية ، ينظر فيها المرء ، دون ان يغطي الواقع بتقارب من الأوهام الزائفة والأكاذيب المموهة مما يسمونه (المثل العليا) والغايات الإنسانية السامية ، وليتذكر الانسان دائماً ان التأريخ العام ،هو المحكمة العامة : لم يعط حق الوجود الا الحياة القوية الكاملة المستيقنة من ذاتها ، حتى ولو لم يكن هذا الحق حقاً للوجود الواعي ، وضحى دائماً بالحقيقة والعدالة من اجل القوة والجنس ، وقضي بالإعدام على هؤلاء الناس والشعوب الذين جعلوا الحقائق فوق الأفعال والعدالة فوق القوة .

لقد كان التاريخ الواقعي عند شبنجلر _ مثل الذي كان _ عند نيتشه _ لا يتمثل في سيادة المثل العليا والخير والأخلاق الحميدة ، بل يتمثل في سيادة القوة والعزيمة والإرادة للذهن الحاضر والموهبة العملية . فالتاريخ يخضع لقانون

حديدي صارم ، يتمثل في المصير الذي يجرد الانسان من حرية الإرادة ، فعليه اذن ان يخضع لمصيره ويذعن ، لكي ينفذ إرادة التاريخ ، حيث انه لن يكون قادرا في جميع الأحوال على صناعة التاريخ ، فالإنسان لا يستطيع ان يختار الحوادث والأحداث ، بل ان الحوادث والأحداث هي التي تختار انسانها ، وتخط عن طريقة تاريخها . ويضرب شبنجلر المثل على هذا المبدأ بنابليون ، حيث انه كان العربة التي امتطتها الحوادث والأحداث ، وانه كان باستطاعتها ان تجد العشرات من أمثال نابليون لتدون نفسها في سجلات التاريخ .[1] كان فيلسوف القوة وإرادة القوة هو المسيطر على تفكير شبنجلر السياسي ، حيث حذا حذوه في بيان ضرورة ان تكون الدولة ، دولة رجال وقوة ، ورأى ان أهم وظيفة من وظائفها ، هي القيام بالحروب ، فالحروب ، حسب اعتقاده ، هي التي تحافظ على حيوية ووحدة الأمة . والحروب على حد قول شبنجلر ، هي الخالقة لكل ما هو عظيم ، كما ان كل ما له معنى في تيار الحياة ، لم يبدأ ولم ينشأ ، الا على النصر او الهزيمة . وهكذا فان الدولة – عند شبنجلر – هي من شأن الرجال ، انها تهتم بالمحافظة على الكل ، بما فيه المحافظة الروحية على الذات التي تعني الشرف واحترام النفس ، نريد الانتصار على التعدي عن طريق توقع الأخطار قبل وقوعها ، انها الهجوم بمعناه الحقيقي ، هذا الهجوم الذي هو طبيعي وواضح بنفسه ، بالنسبة الى كل حياة هي في سبيل التسامي والصعود .

في كل هذا يلتقي شبنجلر في فكره بنيتشه، بحيث يكون صدى لصوته ، ومرجعا لفلسفته ، وان كان يتفوق على نيتشه في منطقه ومعرفته ذات الطبيعة الموسوعية .

---

(1)The Encyclopedia Of Philosophy : Vol : 7 Article : Spengler , Oswald .

التاريخ والطبيعة :

يميز شبنجلر بين التاريخ والطبيعة ، على اساس الصورة التي يكونها الانسان عن الكون ، فان كانت هذه الصورة قائمة على فكرة الصيرورة ، كان التاريخ ، وان كانت قائمة على فكرة الثبات ، كانت الطبيعة .

ان التاريخ واقعة حاضرة حية ذات اتجاه نحو المستقبل ونظرة الى الماضي الأسود فيه الا الضرورة الإنسانية ، في حين نرى الطبيعة مطبوعة بطابع الامتداد دون الاتجاه ، لها زمانها المحدد ، وفيه تسود الضرورة الرياضية .

ان التاريخ الذي يريد شبنجلر ان يميزه هنا – يختلف عن شيء آخر ، هو التأريخ او كتابة التاريخ . فالتاريخ غير التأريخ ، بل ان الواحد منهما لا يقوم الا على اساس إنكار الآخر ، وذلك لأن التاريخ عبارة عن صيرورة خالصة ، بينما التأريخ لا يقوم الا بتحويل شيء من هذه الصيرورة الخالصة الى ثبات ، وكلما كان الجزء المتحول من التاريخ أكبر ، كلما كانت عملية التأريخ أيسر ، فكأنهما يتناسبان تناسبا عكسيا من حيث الإمكانية ، فإمكانية التأريخ نتيجة لسلب الإمكانية عن التاريخ . وكذلك الامر بالنسبة الى عالم الطبيعة ، فانه لا يستطيع ان يعمل دون ان يحول جزء من صيرورة التاريخ ووقائعه الحية الى حقائق ثابتة يعبر عنها بالأعداد والأرقام .

وللتاريخ منطقه ، كما ان للطبيعة منطقها ، فمنطق التاريخ هو المصير ، بينما منطق الطبيعة هو العلية . وقد أكد شبنجلر التعارض الحاد بين فكرة المصير ومبدأ العلية ، اذ ان التاريخ هو الصورة العلية للكون ، لهذا فانه موجه لا يقبل النقص في أي مظهر من مظاهره ، مثقل بالمصير .

ويشعر الانسان الفطري بثقل المصير بطريقة تختلف عن الانسان المنتسب الى الحضارات في أوج قوتها . فالأول يشعر به شعورا غامضا يعبر عنه بشيء من الخوف والقشعريرة ، اما الثاني فيدركه إدراكا واضحا على صورة نظرة في الوجود لا يمكن التعبير عنها الا عن طريق الدين او الفن ، لا بطريق التصورات المنطقية والمذاهب العقلية التي يحكمها مبدأ العلية . فهذا التعبير الأخير ، وكل لغة من اللغات العليا تشتمل على طائفة من الكلمات التي تحيط بها هالة من

السر العميق ، مثل (المصير ، القدر ، الدهر ، الصدفة ، الضرورة ، البخت ، النصيب) ، وهذه الألفاظ لا يمكن للتحليل العلمي المنطقي ان ينفذ الى معناها ، لأنها ليست ألفاظ جاءت وفق مبدأ العلية ، بل هي رموز لأسرار ، وفيها يكمن مركز الجاذبية للصورة الكونية التي يسميها شبنجلر باسم الكون على صورة التاريخ في مقابل الكون على صورة الطبيعة .

ان فكرة المصير تحتاج في إدراكها الى التجربة الحية لا الى التجربة العلمية الآلية ، الى ملكة الوجدان ، لا الى ملكة الربط والتركيب ، الى الحدس ، لا الى العقل . والفلاسفة المنطقيون من أمثال ارسطو وكانت ، إنما يستطيعون الكلام عن القضايا والإدراك العقلي والانتباه والذاكرة . ولكنهم عاجزون كل العجز عن ان يدركوا معاني ألفاظ : مثل الأمل ، والسعادة ، واليأس ، والتوبة ، والتضحية ، والجلد ، والإصرار ، هذه الألفاظ التي تعبر وحدها عن معاني الحياة الحقيقية . فالمصير اسم لهذا اليقين الباطني الذي – يجب على الانسان ان لا يصفه ولا يعبر عنه . اما العلية ، فهي القانون والمعقول وما يمكن التعبير عنه ، وهي علامة وجودنا الواعي العقلي .

والمصير لا يمكن إعطاء فكرة عنه ، الا عن طريق الفن ، بواسطة الصورة أو الرواية او التمثيلية او القطعة الموسيقية ، بينما العلية تفسر بتحليل التصورات ويعبر عنها بلغة الأعداد ، فالمصير يقوم على الخلق والإبداع ، اما مبدأ العلية ، فانه يقوم على التحليل او الهدم ، ومن هنا كانت الصلة وثيقة بين المصير والحياة وبين العلية والموت .

وفكرة المصير إنما يكشف عنها ذلك الجزع الكوني للروح وما فيها من رغبة ملحة في النور والنماء ، وفي تحقيق رسالتها في الوجود ، وهي فكرة موجودة عند كل إنسان ، وانما ينساها فقط الانسان الذي ينتسب الى الدور المتأخر من الحضارة ، حيث يسيطر العقل عليه بأحكامه الخاصة ، ولا يرى الكون الا في صورة الطبيعة ، هذا الانسان فاقد الجذر الذي يسكن المدن الكبرى بما له من إحساس علي وسيطرة للفكر الآلي المنطقي على وجدانه الأصيل ، وهو ينساها الى حين تأتي لحظة ، لحظة عميقة هائلة ، فيها تبدو هذه الفكرة من جديد مضيئة كأشد

ما تكون الإضاءة ، قوية كأعظم ما تكون القوة ، فيفقد الكون في نظره ، حينئذ كل معنى من معاني العلية ، فلا علية الا في الطبيعة ، وبالنسبة اليها ، اما التاريخ فمثقل بالمصير وليس له قانون يحكمه . ولهذا فان التنبؤ بسياق التاريخ لا يتم الا بنوع من التوقع للمستقبل بواسطة الوجدان ، على شكل إحساس غامض بما سيكون ، إحساس غامض ولكنه قوي ، بينما يتم التنبؤ بمجرى الطبيعة بطريقة حسابية .

ولما كانت الصيرورة اساس الثبات ، كان الشعور الباطني اليقني بالمصير اساس العلل والمعلولات ، فالعلية مصير أصابه الثبات ، وفقد طابع التاريخية ، وتبلور في صور عقلية منطقية ، فالأولوية اذن للمصير على العلية ، لأنه شرط وجودها .

والمصير هو الزمان نفسه ، بما له من اتجاه وبما يتصف به من استحالة الإعادة ، اما العلية فهي لا تعرض الزمان ، لأن العلية تقول ، فقط ، بانه اذا وجد شيء وجد آخر ، او إذا وجدت العلة وجد المعلول. ولكنها لا تقول متى توجد العلة ، أي ان العلية تعبر عن علاقة ضرورية قد صرف النظر في تصورها صرفا تاما عن كل زمان لأنها خارج الزمان . وهذا يفضي بنا الى التحدث عن التفرقة بين الزمان والمكان . وهنا نرى شبنجلر يشن حملة شعواء على المفكرين الذين تصوروا الزمان تصورا آليا يتفق مع نزعتهم الى تصور الكون على صورة الطبيعة ، لا على صورة التاريخ ، ويتهمهم في هذا بعدم فهمهم اطلاقا لحقيقة الزمان ، لانهم لم يقولوا كلمة واحدة عن طابع الاتجاه في الزمان . ويتسائل ما هو اذن هذا الزمان الذي ليس له اتجاه ؟ ان كل حي له حياة ، له اتجاه ، وله غرائز وارادة وانفعال عميق كل العمق قريب الشبه بالتشوق والحنين ، وليس له صلة كائنة ما كانت بالحركة التي يتصورها الفيزيائي ، الحي لا يقبل القسمة ، كما لا يقبل الاعادة ، فهو يولد مرة واحدة لا عدة مرات ، وليس من سبيل ابدا الى تعيين مجراه تعيينا آليا : وهذه الصفات كلها من خصائص المصير ، وهي هي عينها صفات الزمان الرئيسية . فاذا كانت الحال هذه فكيف يحق ان يخضع الزمان . بجانب المكان الى دراسة واجدة ؟

ان كلمة الزمان لم يكن لها معنى عند الرجل الفطري . فهو يحيا ، دون ان يكون في حاجة الى ادراك الزمان ، لأن كل ادراك انما ينشأ من الشعور بالحاجة الى الى معارضة شيء بشيء ، ومثل هذا الشعور لا مجال الى وجوده عند الرجل الفطري . لأنه لا يزال يتصور الوجود على انه تاريخ ، ولم يتصوره بعد باعتباره طبيعة . ولكن ليس معنى هذا ان الفطري ليس له زمان ، كلا ان لديه زمان ولكن ليس لديه شعور بهذا الزمان . اما الشعور بالزمان ، فلا ينشأ الا مع التفكير العقلي ، فيظهر هذا الشعور ، اولا على شكل تمثل وتصور ، ثم نشعر بعد ذلك نحن انفسنا بالزمان بالقدر الذي نشعر فيه باننا نحيا . فأن العقل في الحضارات الناضجة يتمثل زمانا تحت تأثير تصوره للوجود على صورة المكان والعدد ، وهذا التصور للزمان كاف لاشباع حاجته الى فهم كل شيء وقياسه وتنظيمه بطريقة علية . وهذا الزمان يكون خاليا من الاتجاه ، لانه على صورة العلية ، لا يمثل الحياة ، لانه على صورة الطبيعة . وفي هذا التصور للزمان يكشف رجل المدنية ، او رجل الحضارات في بداية تدهورها عن رغبته في اخضاع الحياة لنفسه ، بأن يرغمها على الدخول تحت طائلة القانون وفي نطاق التصور العددي للوجود . وبعبارة أوضح يحاول العقل ان يقتل الزمان ، هذا الحي ، فلا يجد وسيلة لقتله غير حصره في المكان الخالي من الحياة والسالب لها .

ومصدر هذا الجزع من الزمان الحقيقي عند الانسان ، هو ان من اخص خصائص الزمان استحالة الاعادة ، واستحالة الاعادة تولد في النفس الجزع ، لأن الحادث الذي حدث مرة ولا يمكن ان يعيده المرء حادث خارج عن ارادته وعن نطاق سيطرته ، فيبدو حينئذ وكأنه يتحدى الانسان . فأذا قبل المرء هذا التحدي ، فلن يضمن الفوز في هذا النضال بينه وبين الزمان الا اذا خاتل وأخل بشرف النضال . وهذه المخاتلة تتم بأن يحاول افساد طبيعة الزمان وتشويه حقيقته واشاعة الانحلال فيه ، بأن يصور الزمان وكأنه من جنس طبيعة ما يضاده وهو المكان ، فيتكون عن ذلك تصور هجيني للزمان . والهجين دائما يفقد مميزات الجنس الاعلى ، فيسهل عندئذ على المرء الانتصار عليه واخضاعه لسيطرته . وهكذا فعل الانسان بالزمان ، تصوره على صورة المكان ، وسلبه الحياة عن طريق التحديد ،

وأعلن انتصاره عليه بأن سماه باسمه . فتسمية الشيء نزعة واضحة في كل فلسفة عقلية ، حيث تميل الى تسمية كل ما يشعر العقل بعجزه عن السيطرة عليه ، فتسمي ، مثلا ، شيئا باسم (المطلق) ، فتشعر حينئذ أنها مسيطرة عليه . وكل تصور للزمان قالت به الفلسفة العلمية او علم النفس التجريبي أو الفيزياء تصور لم ينفذ الى جوهر الزمان ، وانما تعلق بشبحه ، فسلبه حيويته ، واتجاهه ، وصفة المصير فيه ، وابدل بهذا كله صورة للزمان ، على شكل خط ، فأصبح آليا ، قابلا لأن ينقسم ويقاس ويعبر عنه تعبيرا رياضيا . وعلى هذا النحو فقد الزمان كل حياة وكل مصير ، ولم يعد ان يحيا الانسان الزمان ، وانما يفكر فيه فحسب . وسلبت عنه فكرة التتابع المستمر الحقيقي ، بحيث استحالت الاستفادة من لحضيته المكونتين لسره وهما الماضي والمستقبل .

والخلاصة التي نستخلصها من هذا كله هي ان للوجود صورتين ، احداهما صورة التاريخ والأخرى صورة الطبيعة . الصورة الاولى يحكمها سياق المصير ، أما الصورة الثانية فيسودها منطق العلية ، والزمان الحقيقي هو العنصر الرئيسي في صورة التاريخ ، بينما المكان هو العنصر السائد في صورة الطبيعة . فاذا كانت الصورتان اذن متعارضتين ، لكل صورة جوهرها المضاد لجوهر الصورة الاخرى المستقل عنه تمام الاستقلال ! أو ليس معنى هذا كله ان الملكة التي ندرك بها الصورة الاول غير الملكة التي ندرك بها الصورة الثانية ، وان منهج البحث في احداهما يختلف تمام الاختلاف عن منهج البحث في الاخرى . أجل ان لصورة التاريخ ملكة خاصة هي الوجدان ، كما ان الصورة الطبيعية ملكه تدركها هي العقل ، وذلك لان معرفة التاريخ هي معرفة فطرية ، اما معرفة الطبيعة فتتم عن طريق التعليل ، . بمعنى ان المؤرخ ينظر الى الناس والى الاشياء فينفذ اليها مرة واحدة بنوع من الوجدان لايمكن تعلمه ، ولا يوجد على صورته العليا الا النادرين ، فألانسان في التأريخ يدرك مباشرة دفعة واحدة وككل . اما الطبيعة فيحلل المرء ويحدد ويقسم ويعني بحسب العلة والمعلول ، فهذا عمل وذلك خلق وابداع ، فالعقل يقتل حين يعلم ، لانه يجعل من المعلوم موضوعا جامدا يقبل القياس ويسمح بالتقسيم ، اما الوجدان فعلى العكس من ذلك ، حيث يهب الاشياء

الحياة ويضيف اليها حياة الى حياة ، فيشعر الانسان من خلاله بأن هناك وحدة حية مشعور بها من الباطن تربط بينه وبين الاشياء .

شتان اذن بين المؤرخ الذي يقرأ الملامح ، ويدرك من وراء الحاضر الماضي والمستقبل ، وبين العالم الذي لايعلم الا بالتخريب ، ولا يعي الا ما يشاهد حضوره ، لهذا فان من التناقض الواضح ان يحاول الانسان دراسة التاريخ بمنهج العلم ، وانما للتاريخ منهج قريب كل القرب من الشعر ، لان موضوع كليهما واحد وهو الحي ، ولهذا فيجب ان يدرس الانسان التاريخ كشاعر ، تماما كما يجب ان يدرس الطبيعة كعالم .

هذا المنهج الجديد الخاص بالتاريخ هو ما يسميه شبنجلر باسم (التوسم) ، لان المؤرخ يقوم فيه بتوسيم ملامح الحوادث فيتخذ منها رموزا للروح التي املتها ، ومن الاثار ايات على حياة تركتها ، من المظاهر المختلفة شاهدا على روح واحدة ابرزتها ، ومن الاشياء المتجمدة وسيلة للكشف عن تاريخ متغير . وشعار هذا المنهج ، منهج التوسم (كل فان رمز) ، أي ان كل ظاهرة رمز وتعبير عن روح ، وكل المظاهر ترد الى قوة ورائها فاضت بها . فعلى المتوسم اذن ان يتخذ المظهر وسيلة الروح ، ان ينفذ من وراء الظواهر الى الصور ، ومن خلال الظواهر الثانوية الى الظاهرة الاولى ، فان في ظواهر التاريخ تركيبا باطنا فيها . ومهمة المؤرخ استخلاص هذا التركيب .

اذن فليس امام فيلسوف التاريخ او فيلسوف الحضارة ، الا ان يتخذ منهج منهج التوسم طريقا للفهم لا للتفسير ، ويحاول به ان يكشف عن حقيقة التاريخ كله ، وان يسبر غور العاطفة الكونية التي تجول لا في روحه هو وحده ، بل في كل الارواح التي ابانت عن امكانيات عظمى عبرت عنها في صورة الموجود الحقيقي الذي هو الحضارات المختلفة . وليتخذ من كل شيء رمزا ، فكل عصر وكل شخصية عظيمة ، وكل اله ، والمدن واللغات والشعوب والفنون ، وكل ما وجد وكل ما سيوجد ، هذا كله رمز لو توسمناه لكشفنا به عن جوهر التاريخ . فهلم اذن ايها المؤرخ ، فما أفسح الميدان الذي ستجول فيه ، وما أعمق السر الذي ستغوص اليه ، وما أبعد الافق الذي تلقي بنظرك عليه ، ها هي ذي غايتك ، ان تستخلص

من نسيج الحوادث الكونية فترة طوالها الف سنة هي (متوسط عمر الحضارة) . فحاول ان تحقق هذه الغاية . ولتكن وسيلتك الى هذا التحقيق ، ان تتوسم ملامح المصير الكبرى في وجه الحضارة ، باعتبارها شخصية انسانية من الطراز الأعلى.

بعد ان ميز شبنجلر بين التاريخ والطبيعة ، عاد فأكد انه لا يوجد حد دقيق بين هذين النحوين اللذين يدرك على أساسهما الكون ، فبمقدار ما للتعارض بين الصيرورة والثبات من قوة بمقدار ما هو مؤكد وجود هذين النحوين من طريقة الفهم والتفكير . والفارق ان الذي ينظر الى كليهما بأعتبارهما في صيرورة واتجاه نحو الكمال ، يحيا التاريخ بينما الذي يحلل كليهما باعتبارهما ثابتين تامين يعرف الطبيعة . وكل حضارة ، بل وكل دور من أدوار الحضارة له ميل أصيل أو نزوع طبيعي الى اختيار احدى الصورتين ، صورة التاريخ أو صورة الطبيعة في تصوره للوجود . فالحضارة العربية ، مثلا ، تميل الى صورة التاريخ في ايجاد درجة بينما لم تكن الحضارة اليونانية تميل الى صورة التاريخ ، فالاول تميل الى النظر الى الاشياء باعتبار ماضيها ومستقبلها ، فيدخل الزمان والتغير دائما في تصوراتها ، بينما الثانية لا تعترف بوجود غير الوجود الحاضر فحسب ، اما عداه فليس له وجود حقيقي عندها.[1] أما ما يتعلق بأدوار الحضارات ، فانه لما كانت الصيرورة الاساس لكل ثبات ، كان التاريخ هو الصورة الكونية الاول للحضارة ، بينما صورة الطبيعة ، بمعنى التصور الألي الدقيق للكون ، صورة متأخرة لا تظهر جلية الا عند الانسان الذي ينتسب الى الحضارات الناضجة . وفي هذا يقول شبنجلر (الواقع ان الكون المظلم الاول المحيط بالانسانية الذي تشهد على وجوده حتى اليوم الشعائر الدينية والاساطير) . هذا الكون الأولي الخالص المليء بالمفاجات والشياطين والقوى المتحكمة بهواها ، هي كل الحياة ، لا يمكن ادراكه وكأنه اللغز يتماوج تماوجا عجيبا ، ولا يمكن حده وحصره وعبثا سماه الناس (طبيعة) فانه يختلف عن الطبيعة ، كما نتصورها نحن كل الاختلاف ، لانه ليس

---

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوي : ١ شبنجلر : ص ١ -٢٣ .

انعكاسا لروح علمية أو عقل منطقي . وأقرب صورة نجدها لهذا الكون تلك التي نراها تسيطر في الدور الأول من أدوار الحضارة ، هي صورة الكون كما نراها عند الاطفال او كبار الفنانين . ومن هنا ينبغي التفرقة بين التصور الفني غير العملي للوجود وبين التصور العلمي (الحديث) ، وعندئذ يمكننا ان نفسر كيف ان الشاعر ورجل الاعمال لا يمكن لأحدهما مطلقا ان يفهم الاخر .[1]

فالتاريخ هو هذه الصورة الساذجة الفضة اللاشعورية التي توجد عند جميع الناس ، بينما الطبيعة صورة نادرة تقتصر على سكان المدن الكبرى ، والذين ينتسبون الى الادوار المتأخرة من الحضارة الناضجة التي تكون على وشك الشيخوخة والانحلال .

مولد الحضارة وموتها :

يصور شبنجلر التاريخ او الوجود بأنه فيض لانهائي من الصور اللانهائية التي تظهر ثم تختفي ، وترتفع ثم تغوص ، وخليط هائل فيه ترف الاف الألوان و الأضواء يبدو فريسه لأشد انواع الاتفاق والصدفة نزوة وسورة . تلك هي الصور الاولى للتاريخ الكوني كما تتراءى منشرة على شكل واحد امام اعيننا الباطنة .ولكن العين المرهفة النفاذة الى اعمق اعماق الاشياء لاتلبث ان تمزق هذه الغوض المطلقة صورا ان عليها غشاء ثقيل ، لاتستطيع التخلص منه الابعناء ، صورا تفيض منها كل صيرورة وكل تطور انساني . هذه الصور هي الحضارات ، التي هي الظواهر الاولية لتاريخ الانسانية ،كما انها الظاهرة الاولية للتاريخ الكوني كله ، ما كان منه وما سيكون ، وهي اللغة التي بها تعبر روح الكون عما تشعر به ، كما انها الحد النهائي الذي لا يستطيع الانسان النفوذ الى ما ورائها ، وكل ما يستطيعه في هذا الموقف هو الدهشة ، لايجد امامه سوى فكرة الصيرورة خالصة صافية .

تولد الحضارة في اللحظة التي تستيقظ فيروح هذه الحضارة وتنفصل عن الحالة الروحية الكونية الابدية ، كما تنفصل الصورة كما ليس له صورة ، وكما

---

(1) Hughes (H. S .) : Oswald Spengler : A Critical Estimate : P . 37 –49

ينبثق المحدود الغاني من اللامحدود الباقي ، وتنمو في تربة وبيئة محددتين تمام التحديد ، تظل مرتبطة بهما ارتباط النبته بأرضها وبيئتها . فالحضارة تولد وهي تجعل معها صورة وجودها ، وهي على صلة رمزية عميقة ، صلة تكاد تكون تكون صوفية بالمكان الذي فيه وبواسطة تريد ان تحقق وجودها ، وهي تصارع وتناضل داخل المكان الذي اختاره بها مصيرها لتنظيم كل خليط فيه على صورتها فارضة عليه وجودها . وتاريخ حياتها هو تاريخ هذا النضال الشاق العنيف بينها وبين هذه القوى . فحياتها كحياة الفنان الذي يناضل المادة والعوامل التي تقف في سبيل تحقيق الفكرة الحاضرة في نفسه . انها تولد حاملة في روحها صورة وجودها ، ولكنها تجد خليطاً من القوس الخارجية لايتلائم وتحقيق هذه الصورة او يعارض في هذا التحقيق . فلا بد لها اذن ، من اجل تحقيق الصورة وفرض السلطان ، وتنفيذ ارادة القوة لديها ان تنظم هذا الخليط حتى يكون على صورتها ، وان تحطم او تدفع القوى التي تعترض سبيلها وتقف في تيارها . وعلى هذا النحو تستمر الروح في نضالها ، خالقة أثناء هذا النضال ، وكأداة لتحقيق الظفر والانتصار ، طائفة من الصور والاوضاع قد طبعتها بطابعها الخاص .

ولما كانت الحضارة كالكائن الحي فانها تمر بنفس الادوار التي يمر بها أبان حياته . فلكل حضارة طفولتها وشبابها ونضجها وشيخوختها ، او ان لكل حضارة ادوار تشبه ادوار السنة ، فلها ربيعها وصيفها وخريفها وشتائها . ولكل دور من هذه الادوار من الخصائص ما للفصول السنوية تماما . فحضارة كالحضارة الغربية (الاوربية – الامريكية) بدت لأول مرة حوالي سنة (٩٠٠ م) ، طفله لم تشعر بعد بقواها ، فتقدمت الى النور في خوف واستحياء . ولكن كانت تشع في نظراتها تعبيرات تربة بيئتها ، تعبيرات عن قوى كامنة زاخرة في باطنها ، مؤذنة بنمو سريع ، وسرعان ما اهتزت تربة بيئتها وبدت الخضرة في كل مكان ، وهكذا رفت روح الربيع على هذه البيئة فاشاعت فيها قشعريرة الخلق والحياة المليئة ، فأصبح كل شيء يؤذن بميلاد روح جديدة ، روح استيقظ حينئذ شعورها ، في شيء من الغموض والقلق والاستحياء والجزع ، فبدأت تنازل كل العناصر الشيطانية المظلمة الكامنة فيها وفي الطبيعة الخارجية ، وكأنها تنازل خطيئة ، كي

تسعى شيئا فشيئا في نضوج مستمر الى التعبير الواضح المضيء عن وجود استطاعت أخيرا ان تظفر به وان تدركه .

وكلما نمت واقتربت شيئا فشيئا من صيفها تحددت ملامحها واستقرت اللغة التي تعبر بها عن نفسها ، وتمايز الطابع الخاص بها في الاوضاع التي تحققها ، واصبحت كل لمحة من لمحاتها ممتازة دقيقة ، فيها خفة وفيها وضوح ، كما نراه واضحا في الآثار الفنية التي تعبر عن هذه الفترة من تطور الحضارة الغربية . ويرى شبنجلر ان لكل حضارة صيرورة واتجاها وزمانا ومصيرا وتاريخا ، وان الحضارة أسيرة مصيرها ، وان اتجاهها لا يمكن ان يقلب أو يعكس او يحول وذلك لأن هذا الاتجاه هو اتجاه وسمه المصير وحددته الصيرورة . وتاريخ الحضارة هو تاريخ الروح الاولية للامة ذات الحضارة ، وانه لا يمكن ان تكون هناك حضارتان متماثلتان كل التماثل ، وذلك لأن لكل حضارة تاريخ مستقل بذاته لا يتأثر ابدا بتاريخ أي حضارة أخرى ، واذا ما تأثر فانما لا يتأثر بصورة جوهرية ، فالروح الاولية للحضارة المحدودة الحرية تسعى حتى في مثل هذه الظروف الى طبع الحضارة المتأثرة بها بطابعها ، ويرى شبنجلر في الحضارة العربية خير مثال على هذه الحالة ، حيث تمكنت هذه الحضارة ، حتى في اعتمادها القواعد الكلاسيكية في الهندسة المعمارية ، ان تفر من طابعها الخاص لتتميز على المباني الرومانية .

كما ان لكل حضارة دستورا خاصا بها يتمثل في العقيدة وقوة النفس ، وان هذا الدستور الحضاري لا يعتمد على العقل ابدا ، وانما يعتمد على الوجدان . هذا الوجدان الذي يكمن في الشعور لا بالحس ، فالعقلانية في شتى مذاهبها تمثل اول مرحلة من مراحل تدهور الحضارة ، لذلك عندما تدخل الحضارة الطور العقلاني من تطورها تبلغ خريف عمرها وتشيخ وتهوي الى درك المدنية .

وطالما كان في باطن الحضارة قوى خلاقة ، استمرت في عملية الخلق ، وظلت تخوض هذا النضال . اما إذا فقدت قواها الخالقة ، أما باختناقها تحت تأثير روح اخرى اقوى منها وأخصب ، وأما لأنها بلغت غايتها إذ حققت صورتها الذاتية ، ولم يعد في استطاعتها ان تعلو على الحد الذي وصلت اليه ، حيث حققت في

الخارج كل ما تحتوي عليه من امكانات باطنة ، ينضب دمها ، ويتحجر كيانـــها ، فتصبح (مدنية) أي حضارة في بداية عهد تدهورها وانحلالها ، وهذا ليس معنـــاه فناءها سريعا ، بل انها تبقى قادرة على البقاء قرونا اخرى ، كما تبقى الشجرة التي استنفذ الزمان عصارتها سنوات طوالا تمد أغصاناً رغم انـــها أصبحـــت فريســـة للتسوس .

ويشن شبنجلر حملة عنيفة على المدنية ، حيث يسيطر فيها العقـــل علـــى الوجدان ، وتصبح الصيرورة صيرا ، ويمسي التاريخ طبيعة ، وتصبـــح الطبيعـــة الحية ، طبيعة ميتة ، ويغدو الزمان مكانا والاتجاه امتدادا والعلوم الروحية علومـــا طبيعية ، وتصبح الفجاجة المادية والوفرة العددية صاحبتي الحول والطول ، وتنحل الضمائر وتصبح العظمة لا تقاس الا بالباع والذراع ولا تقدر الا بالقنطار والدينـــار ، وكانت من قبل ، تقدر ، بما لا يمكن ان يقاس من العزائم والاخلاق .

في المدنية تنشأ المدن الكبرى التي يعيش فيها سكان لا يمثلون امة ، بـــل يمثلون ، فقط ، ركام جماهير تتفاعل نتيجة عوامل مصلحية مادية ، لا تمت الـــى الوجدان والضمير بصلة . اما منازلها ، فليست سوى ملاجيء يأوي اليها أنـــاس لا تجمع بينهم رابطة الدم ، بل الصدفة ، ولا توحد كلمتهم وحدة الشعور الانســـاني ، بل روح المصلحة الاقتصادية .

ان ساكن المدينة في هذا الطور لا يستطيع ان يعيش في مكان آخر ، غير هذه الارض الصناعية ، وهي تمثل تقهقر السياق الكوني لوجوده الأصيل ، بينمـــا تصبح مؤثرات وجوده الواعي اشد خطرا عليه ، يوما بعد يوم . والانســـان فـــي المدنية لا يؤمن الا بالتفسير السببي ، ولا يفهم التجربة الحية اللاحسية ، وهو فـــاقد كل مميزات الدم والقومية والشعور بالتقاليد ، وهو لذلك عقيم وعقمه يدل على انـــه قد فقد الرغبة في الحياة ، وفقد الخوف من الموت ، ولم يعد يشعر ان هناك مـــبرر لوجوده واسبابا تبرر بقائه واستمراره في الحياة ، لهذا فانه يمم شطر الموت . فاذا ما وصلت الحضارة الى قمة تطورها وحققت جميع امكانيتها ، وانتقلت من حالـــة الحضارة بمعناها الدقيق الى حالة المدنية ، ينطفيء فيها النور الذي كان متوهجـــا ، بالتدريج ، ولا يعود يرسل الا شعاعا من القوة الحقيقية اقل مما يدل عليه المظهر ،

يحاول ان يخلق أثرا عظيما ـ كما هي الحال في النزعة الكلاسيكية في أواخر القرن الثامن عشر باوروبا ـ وتشعر الروح بالحنين في شيء من الحزن ، الى طفولتها الاولى ـ كما هو واضح في النزعة الرومانسية .

وأخيرا وبعد ان تمسي الحضارة منهوكة القوى . خالية من العصارة قد ينضب منها ماء الحياة تستهويها حينئذ نزعة دينية صوفية غامضة يشوبها شيء من الجزع العقيم والقشعريرة الجوفاء ، وتفقد الرغبة في الوجود ، فتطمح الى الظلمة في بطن أمها التي فيها نشأت ، وتتوق الى القبر، فهي روح أوشكت على الفناء ، فلا تخف الا ما هو تعبير عن الموت ، الى الظلال الشاحبة الحزينة ، والى الليل المظلم المشرف على الهاوية ، والى الاحلام التي تمليها الكهوف المعتمة الفائرة ، فتندفع لتنشد السلوى والسكينة في ظلالها الزرقاء ، وتشعر بالنشوة تغمرها من فيض الحانها الخافتة خفوت الموت .[1]

وتموت الحضارة بعد ان تكون روحها قد حققت جميع انماط وجودها ، على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون ودول وعلوم ، لتعود الى الهيئة الروحية الأولية للكون .

التاريخ والمرأة والرجل :

ان التعارض بين الكون الاكبر والكون الاصغر ، بين الوجود والوجود الواعي ، بين الزمان والمكان ، بين المصير والعلية يتجلى ناصعا في هذا السر العجيب من اسرار الحياة ، ونعني به الانقسام بين الجنسين الانثى والذكر فالانثى مقيدة بالكون مرتبطة بالارض كل الارتباط ، ليس لها من الحرية الا حظ ضئيل ، قابلة لا فاعلة ، سلبية لا ايجابية ، اما الذكر فاكثر حرية واقل ارتباطا بالارض ولا يخضع للمؤثرات الخارجية الا بدرجة قليلة ، فهو كون اصغر ازاء الكون او ضد الكون الاكبر . الانثى هي الدم والذكر هو الحواس ، والحواس في حاجة الى الدم ، بينما لا يحتاج الدم الى الحواس ، لهذا كان الذكر يقوم على الانثى لا العكس ، والدم رمز الدوران والتوالي ، بينما الحواس رمز التضاد والتمايز ، فالانثى اذن

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوي : اشبنجلر : ص ٢٤ — ٣٧ .

تعبر عن السياق والذكر عن التوتر . والانثى تحيا ولا تفكر في الحياة ، أي انها تحيا حياة الوجود ، اما الذكر فيفكر في الحياة ويفهم الوجود ، ولذا يحيا حياة الوجود الواعي . والوجود منطقة المصير ، بينما الوجود الواواعي منطقة العلة والمعلول . لذلك فان المرأة لا تفهم العلية لانها هي المصير نفسه او هي المنطق العضوي نفسه ، ذلك المنطق الذي يتعارض تماما مع منطق الذكر الذي يحاول ان يدرك المصير عن طريق التجربة الحية او عن طريق تصور العلة والمعلول . الانثى هي التاريخ ، أما الذكر فيحاول ان يصنع التاريخ . وذلك لأن للتاريخ معنيين ، فهو تيار كوني خالص ، من ناحية ، وهو تتابع لأكوان صغرى يضمها ذلك التيار ، تعمل على حفظه وبقائه ، من ناحية أخرى . المعنى الأول هو معنى التاريخ الأبدي الذي يسير على وتيرة واحدة وسياق مطرد ، وهو موجود في صفائه في الدور السابق على نشأة الحضارة ، وهذا التاريخ هو موضع اهتمام المرأة . أما المعنى الثاني فهو التاريخ الشعوري الممتاز بالحركة والحرية . وهذا التاريخ هو الذي ينشأ مع بداية نشأة الحضارة ، وهو يأخذ المعنى الشائع ، أي التاريخ الاجتماعي والسياسي الذي هو موضع اهتمام الرجل . والمرأة تحاول ان تفرض النوع الاول من التاريخ ، بينما يحاول الرجل ان يجعل التاريخ الساند تاريخه الخاص ، تاريخ يسوده العقل والحرية . ومن هنا ينشأ صراع مرير بين المرأة والرجل ، يتمثل أول ما يتمثل في هذا الرمز الذي يربط بين الاثنين ، ونعني به الولد ، إذ أن سياسة المرأة الأبدية ، هي استخدام الرجل كوسيلة تستطيع من خلالها ان تكون أما لأولاد ، وبالتالي تكون تاريخا ومصيرا ومستقبلا ، ودهاؤها السياسي العميق ومكرها الحربي الملتوي يتجه دائما وابدا نحو تحقيق هدفها الرئيسي ، وهو إنجاب الأولاد . وقد عبر (نيتشه) عن هذا أصدق تعبير حين قال (كل شيء في المرأة لغز ، له مفتاح واحد هو الاولاد . فالرجل بالنسبة الى المرأة وسيلة والغاية دائما هي الولد) . بل ان الولد ، ليس في حد ذاته غاية ، انما هو ايضا وسيلة من اجل تحقيق تاريخها الخاص ، هذا التاريخ الاولي اللاشعوري الذي يسبق كل الحضارات . وفي هذا تفسير ايضا لطبيعة الحب في نظر المرأة . الحب الجنسي بطبيعة الحال . فهو والولادة شيء واحد ، وعلى الاقل هو الوسيلة الوحيدة

الى الولادة ، اذن فلا يقل عنها اهمية بالنسبة اليها . اما الرجل الذي شاء تقل طبيعته ان يجعله عضوا في التاريخ الثاني ، فيريد من ابنه ان يكون وارثا وممثلا لدمه وتقاليده التاريخية الحضارية .

ويتخذ هذا الصراع الابدي بين الرجل والمرأة اشكالا عدة ويستعمل فيه كل ما يتيسر له من سلاح : فالمرأة تتخذ سلاحها من العاطفتين العنصريتين الاوليتين الناشئتين من أعماق الجنين الكوني ، ونعني بهما : الكراهية والحب ، اما الرجل فسلاحه من طبيعة وجوده الخاص ، وجوده الواعي : أي العقل والمنطق ، ولهذا كان سلاحها صادر عن الحياة ، اما سلاح الرجل فمفروض على الحياة أو طاريء عليها . فالوجود والحياة ليسا في حاجة الى العقل ، في حين ان العقل في حاجة الى الوجود والى الحياة .[1]

وهذا الصراع وجد منذ ان وجد الجنسان وسيضل دائما محتدما لا يعرف الهدنة أو التسليم ، رغم الصمت المحيط به ، لأن المرأة لن تستطيع أن تفهم الرجل مطلقا . بل وستجد فيه دائما شيئا يضاد أعز ما لديها وأقدس ما تعتز به ، وهو التركيز ، فقط ، على الجنس والاولاد . والحيلة التي تستخدمها في هذا الصراع من أجل سيادة تاريخها على تاريخ الرجل ، هي محاولة تلهيته عن سياسته العقلية المنطقية الشعورية الواعية ، لكي تربطه بسياستها الخاصة ، سياسة بقاء الدم وتتابع الاجيال ، ليس ، الا .

نقد وتقويم :

لاشك بأن لشبنجلر فلسفة جديدة في فهم تطور التاريخ البشري والحضارات الانسانية التي تشكل هذا التاريخ . فهو عندما وضع كتابه الرئيس عنوان (تدهور الغرب) كانت الغاية الاصلية منه بيان انحلال الحضارة الاوربية الغربية في عصره ، الا ان هذه الغاية امتدت لتشمل كيفية نشأة الحضارات وانحلالها في الوجود كله ، حيث وضع فلسفة في التاريخ العام للكون ، او فلسفة عامة في الوجود على صورة التاريخ ، فكل الظواهر ــ بالنسبة اليه ــ رغم

---

(١) المصدر نفسه : ص ٣٧ -٤٠ .